من أدب الرحلات في الاندلس
((ترتيب الرحلة للترغيب في الملة لأبي بكر بن العربي المعافري))
((٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ))

د. بشرى محمد طه البشير
كلية التربية – الجامعة المستنصرية

توطئة:

لقد ظل الشعر هو الميدان الاكثر رحابة والأكفأ مقدرة على اشباع الغريزة الوصفية لدى الانسان المبدع، فقيل لذلك إن الشعر وصف كله. إلا أن هذه الهيمنة الشعرية على الهاجس الوصفي لدن المبدع العربي لم تحل دون تطلعه صوب ميدان اخر من ميادين الابداع الادبي إذ امتدت أنامل موهبته لترسم مشاهد متنوعة من لوحة الحياة الكبرى. ولكن هذه المرة عبر جنس تعبيري اخر هو النثر. فانطلق الكتاب من الادباء يتنافسون في وصف كل ما وقعت عليه أبصارهم من صور إنسانية وطبيعية وغيرها كثير مما حفلت به المصادر العربية القديمة، وهو ما اصطلح عليه الدارسون لهذا النمط التأليفي الأدبي. بـ (الوصف المنثور).

ولم تكن الحضارة الاندلسية بالبعيدة عن هذا اللون من الابداع النثري , فاحتضنت مصادرها العديد من النماذج الوصفية التي استطاع مبدعوها من الاندلسيين أن يقدموا لوحات ملونة عن الحياة الاندلسية في كل تفاصيلها، فكان ذلك داعياً لتنوع أشكال ذلك الوصف وتعدد ضروبه . ولعل من أبرز تلك الضروب تميزاً، وأكثرها لفتاً للنظر لما تختزنه مادته الابداعية من ثراء فني ، وقيمة علمية. هو ما أطلق عليه تسمية (أدب الرحلات) والذي عرفته كل من الحضارتين المشرقية والاندلسية على حد سواء. حول هذا النوع الادبي الوصفي. ومن خلال التعرض لمصنف من مصنفاته الرائدة في الاندلس. سيدور هذا البحث.

الفقرة الأولى: الرحلة في الاندلس.

شاعت ظاهرة [الرحلة] في المجتمع الاندلس شيوعها في المجتمع العربي المشرقي: فقامت، كما هو الحال في المشرق، تحت تأثير دوافع مختلفة في مقدمتها يأتي الدافع الديني، الذي تمثل في فريضة الحج الى بيت الحرام . وتتعاقب بواعث الرحلة في الاندلس لتتخذ أشكالاً أخرى منها الانتجاع في طلب العلم والذي غدا لازمة ضرورية لاستكمال المؤهلات

الثقافية والمعرفية للعالم والأديب الاندلسيين . وتأتي الغاية التجارية – إذ عرف العرب بعشقهم لهذه المهنة – ومع اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية، وامتداد طرق قوافلها البرية والبحرية على مساحات شاسعة من أرجاء المعمورة انذاك، لتمارس دوراً لايمكن اغفاله في دفع الكثير من الاندلسيين لرفع أشرعتهم وركوب البحر . أما الدافع السياسي الذي شهدته الاندلس عبر قرون حضارتها الثمانية والذي وسم بالتقلب والاضطراب وعدم الاستقرار فقد شارك هو الاخر بقسط لابأس به في نزول الاندلسيين إلى عالم الرحلة ومغامراتها.إن قيام [الرحلة] ظاهرة سلوكية في المجتمع الأندلسي كان عاملاً مهماً في ميلاد نمط أدبي وصفي يستطيع استيعاب كل مفرداتها. وعلى نحو يحقق المتعتين الجمالية والعلمية معاً . وهكذا شهدت الحياة الادبية الاندلسية ظهور المصنفات التي قامت على عرض مشاهد الطواف والارتحال بين الامصار والبلدان ، والتعريف بمن تم اللقاء بهم من الاشخاص والعلماء والادباء ، وتصوير كل ما وقعت عليه عين صاحب الرحلة من تفاصيل انسانية وطبيعية واقتصادية ودينية تخص الناس وطبائعهم وعاداتهم وثقافاتهم . وإذا كانت ((رحلة ابن جبير)) هي القدح المعلى على قريناتها من رحلات أندلسية ، وكما أجمع الباحثون المختصون، فانها لاشك ليست هي الأولى زمنياً، فقد سبقتها في هذا المضمار رحلة أنجزت سواء على صعيد الواقع الحياتي أو الابداع الفني قبل نصف قرن من الزمان ونريد بذلك رحلة الفقيه أبي بكر محمد بن العربي يشير المستشرق الروسي كراتشكوفسكي إلى ان ماوصلنا من رحلة ابن العربي هو أقدم ماوصل من تراث أندلسي في أدب الرحلات[١]. فلقد ألف المبدعون قبل عصر ابن العربي، أن يكتبوا (برامج) شيوخهم فيذكرون اسماءهم وعناوين كتبهم وأصول رواياتهم ولاشيء أخر[٢]. أما الذي ابدعه ابن العربي فهو وصف حقيقي وأدبي لرحلة طويلة قام بها إلى المشرق بعد افول نجم الدولة العبادية باشبيلية . وهو ماسنأتي على ذكر تفاصيله في القادم من الصفحات.

الفقرة الثانية: صاحب الرحلة

حق للقارئ أن يسأل : من هو أبو بكر بن العربي هذا؟ قد تكون هذه الشخصية غير معروفة عند بعض الباحثين بله المختصين بتاريخ الادب الاندلسي , ولكنها ليست كذلك عند أهل الاندلس. فابن سعيد المغربي مثلاً ينقل عن علم من أعلام الاندلس قوله : ((لو لم ينسب لاشبيلية إلاهذا الإمام الجليل ، لكان لها به من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل))[٣]. في اشبيلية ولد أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد العربي المعافري ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان عام (٤٦٨ هـ) [٤] وبين جدران بيت من أكابر بيوتها وأرقها حسباً وأوسعها علماً تربى فوالده عبد الله بن محمد بن العربي كان واحداً من علماء المدينة وأعيانها المبرزين،

وجده لأمة عمر بن الحسن الهوزني إمام من أكابر الائمة في اشبيلية ومحدثيها وأما خاله الفقيه أبو القاسم الحسن بن أبي حفص الهوزني فهو علم من أعلام السياسة في المدينة والتي لعبت دوراً رئيساً في اسقاط دولة بني عباد على يد المرابطين. من وسط هذه الاجواء العلمية والسياسية معاً تلقى ابن العربي مصادره الثقافية حتى بلغ فيها رتبة وصفها نفسه قائلاً ((حذقت القرآن وأنا ابن تسع سنين ثم ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب, فبلغت ست عشرة سنة وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة بما يتبعها من اظهار وادغام ونحوه. وتمرنت في الغريب والشعر واللغة))[٥].

إنه نضوج فكري مبكر لفتى في السادسة عشرة من عمره. يعلن عن موهبة تتجسد أبرز خصائصها في ذهنية ثاقبة ومدارك واسعة وعشق للمعرفة ومنها الأدبية شعراً ونثراً ، وهو ماسيتجلى في وصفه لرحلته, ابداعاً فنياً.

في عام (٤٨٥هـ) ، عندما كانت شمس الدولة العبادية تميل إلى الأفول خاض ابن العربي وكان آنذاك لايزال فتىً في السابعة عشرة من عمره, مغامرة جريئة خرج به والده قاصداً الشرق في رحلة طويلة، تعددت الأراء وتضاربت حول دوافعها. وستكون لنا وقفة عندها – في الفقرة التالية إن شاء الله.

وحين قفل راجعاً الى موطنه اشبيلية راجعاً عام (٤٩٣هـ) رجع بعلم كثير ومعرفة لا تضاهيها معرفة، وحتى قال هو نفسه مفتخراً بهذا الزاد الفكري الغزير ((لم يرحل غيري وغير الباجي وأما غيرنا فقد تعب))[٦]. أما اشبيلية فقد فتحت ذراعيها محتفية بابنها البار، منزلة إياه المقام الذي يليق به وقد حف به رجالات الفكر والدين والثقافة فتحول مجلسه الى منتدى ينجذب إليه العديد من العلماء والادباء الاندلسيين على حد سواء. ولعل خبر الصداقة التي توثقت أواصرها بينه وبين الشاعر الأندلسي ابن سارة الشنتريني مشهورة في الأوساط الأدبية أنذاك[٧].

ولما كان أبو بكر بن العربي وكما وصفته المصادر الاندلسية، بأنه ختام علمـــاء الاندلس، رأنه كان فصيحاً، حافظاً، أديباً، شاعراً. كثيرالملح مليح المجلس[٨]. فقد كان من المألوف ان يترك للاجيال من بعده إرثاً ضخماً من المؤلفات التي توزعت بين علوم شتى. ولكن الذي يعنينا في مقامنا هذا ، هو مؤلفه الموسوم بـــ ((ترتيب الرحلة للترغيب في الملة)) والذي عد كما أسلفنا. أقدم مصنف في أدب الرحلات في الأندلس[٩].

وفي عام (٥٤٢هـ) وبعد قيام الدولة الموحدية في كل من الأندلس والمغرب ترأس وفداً لأهل اشبيلية إلى الأمير عبد المؤمن الموحدي ولسبب ماحبس هذا الوفد بمراكش عاماً كاملاً ثم سرح، وعبر رحلة الانصراف إلى الاندلس أدركت المنية أبا بكر بن العربي على

مقربة من مدينة (فاس) المغربية، فدفن خارج أحد أبوابها المعروف بـ((المحروق)) وكان ذلك عام (٥٤٣هـ).

الفقرة الثالثة: تفاصيل الرحلة

تحدثنا الاخبار الاشبيلية، أنه في عام (٤٨٥هـ) وبعد زمن من سقوط المدينة بيد القائد المرابطي سير بن أبي بكر، عقد الأب عبد الله البالغ نحواً من خمسين عاماً، والابن أبو بكر ابن العربي صاحب السنوات السبعة عشرة، العزم على الخروج في رحلة طويلة صوب المشرق حطّا الرحال عبرها في مصر والشام والعراق والحجاز وقد اختلفت المصادر الاندلسية في شرح دوافع هذه الرحلة . فإذ نفهم من رواية للفتح بن خاقان ينقلها عنه صاحب النفح، أن الدافع وراء هذه الرحلة هو البحث عن أمل جديد في بلاد جديدة بعد أن انقلبت الاحوال باشبيلية ((فلما أقفرت حمص (أي اشبيلية) من ملكهم (أي بني عباد) وخلت وألفتهم منها وخلت، رحل .. إلى المشرق وحل فيه محل الخائف ..... وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستئنافه فلم يسترد ذاهباً ..))[١٠]، نجد ابن بشكوال صاحب الصلة يجعل (طلب العلم) هو غاية الرحلة الرئيسة[١١]. ويصبح (الحج) هو الدافع وراء الرحلة في ديباج ابن فرحون إذ يقول ((فلما انقضت دولتهم ... خرج إلى الحج مع ابنه .. أبي بكر))[١٢]. أما ابن خلدون فيعطي للرحلة طابعاً سياسياً صرفاً جاعلاً منها تكليفاً رسمياً صادراً عن الامير المرابطي الى أبي بكر العربي ووالده للتوجه إلى بغداد عاصمة الخلافة بغية الحصول على منشور يؤيد الولاية المرابطية بالاندلس ((وتسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين وخاطب المستظهر بالله العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد العربي المعافري الاشبيلي وولده .. أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الابلاغ وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والاندلس فعقد له ...))[١٣]. وقد أخذ بالرأي نفسه عدد من الباحثين المحدثين المختصين في مجال الدراسات الاندلسية[١٤].

لقد كانت أولى محطات رحلته الطويلة. مدينتي [بجاية] و[المهدية] في الجزائر. ثم ركب البحر من المهدية قاصداً السواحل المصرية، في مغامرة خطرة، سنقف عند أبرز مشاهدها. مصورة بقلم ابن العربي ومخيلته الخصبة في الفقرة القادمة. لم يطل ابن العربي وولده المكوث طويلاً. في مصر إذ غادراها متوجهين صوب بيت المقدس ومنها إلى دمشق التي أعجب بما كان فيها من أسباب الرفاهة والنعيم مما سيصور لنا تصويراً فنياً في وصفه ترتيب الرحلة. أما بغداد فكانت وجهته الأخيرة التي حط فيها الرحال على أيام الخليفة العباسي المقتدى بالله. ومن بعده الخليفة المستظهر بالله. لم تنقطع رحلة ابن العربي عند بغداد إذ تركها صوب البيت الحرام لاداء فريضة الحج، ليعود من بعد أدراجه إلى بغداد ثانية فيمكث فيها ما

يقارب السنتين . وفي سنة (٤٩٢ هـ) كان والد ابن العربي قد أخذت الشيخوخة منه مأخذاً . فرأى أن يقفل به عائداً إلى وطنه الاندلس . وفي طريق العودة. واثناء إقامتهما في الاسكندرية توفي الوالد ودفن هناك، أما ابن العربي نفسه فقد واصل خطوات الاياب حتى بلوغه موطنه في عام (٤٩٣ هـ).

لم تكن رحلة أبي بكر بن العربي الطويلة، أياماً مضنية شاقة لكنها كانت نبعاً متدفقاً بالمعارف المتنوعة التي حرص ابن العربي على الارتواء منها حتى الثمالة، بتردده الدؤوب على مجالس العلماء. للسماع منهم والأخذ عنهم . فكان أن أخذ العلم عن مشاهيرهم كأبي حامد الغزالي وأبي زكريا بن علي التبريزي وأبي الفتح المقدسي وأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوسي وسواهم[١٥].

كما أن رحلته الطويلة تلك كانت مورداً غنياً ومهماً أخصبت مخيلته بالمتنوع من المشاهد والمختلف من الصور مما سيكون من بعد مادة غنية يستعين بها لاخراج مصنفه في أدب الرحلة.

الفقرة الرابعة: كتاب ((ترتيب الرحلة للترغيب في الملة))

وصف أحد علماء الاندلس أبابكر بن العربي بأنه غريب الحكايات والروايات[١٦] من البين أن هذا التوصيف، على الرغم من قصره، فهو يقدم لقارئه، وثيقة مهمة تتعلق بالصفات الابداعية التي تمتع بها ابن العربي فهو يشير إلى امتلاكه موهبة القص. وأخذه بناصية القدرة على السرد. ومن جانب آخر فهو يلمح إلى خصوبة طاقاته التخيلية أيضاً. مما مكنه من أن يكون قادراً على صياغة الحكايات ووضع الروايات الغريبة غير المألوفة للناس. ولاشك أن هذه الامكانيات الابداعية هي لوازم ضرورية لمن أراد التصدي لأدب الرحلة. فإذا ما أضفنا إلى كل هذا، ما وسمت به هذه الشخصية من فطنة وحدة ذهن – صفات أتى عليها مَن ترجم لها – أدركنا كم ستكون مجتمعة خير عون له على رصد المشاهد المختلفة والصور المتنوعة مما وقعت عليه عيناه إبان رحلته الطويلة. ولاريب أن اقتران موهبة التأليف والقص مع ذاكرة تختزن الهائل من الملاحظات والمشاهدات، سيثمر مؤلفاً كبيراً له سماه بـ ((ترتيب الرحلة للترغيب بالملة))[١٧]. ولكن مما يؤسف له أن هذا الكتاب، وإن وصفه صاحب نفح الطيب بأن ((فيه من الفوائد ما لايوصف))[١٨]. فهو يعد الان من المصادر الاندلسية المفقودة والتي لم يعثر عليها حتى يومنا هذا. وأما ما وصل إلينا ضمنه فصول مطولة تقدم لقارئها مشاهد ذات مضامين متنوعة من أحداث تلك الرحلة. ولعل من المفيد الاشارة إلى أن بعض تلك الفصول قد حوتها مؤلفات أخرى لابي بكر بن العربي ومنها كتاب ((قانون التأويل)) على سبيل المثال. والذي ينقل عنه المقري، بعضاً من فصول ترتيب الرحلة.

إن ما اطلعنا عليه من نتاج ابداعي يدل أن كتاب ((ترتيب الرحلة للترغيب بالملة)) إنما هو من الذخائر النفيسة التي تصف الكثير من أحوال المجتمعات العربية والاسلامية وعمران البلدان التي مر بها في النصف الأخير من القرن الخامس للهجرة. كما أنه يعرض لواقع الحياة الفكرية وما عرفته من أعلام ومصنفات ومادار في حلقاتها الدراسية من مناقشات وآراء. إلى جانب إشارته الى ماشهدته الحقبة نفسها من حكام وساسة وعلى قدر ما اطلع عليه هذا العالم والرحالة الدقيق النظر والحريص على الالمام بكل تفاصيل الشؤون الحياتية والفكرة والعمرانية في الحقبة السالفة الذكر من تاريخ الحضارة العربية والاسلامية.

ففي فصل يكاد أن يكون أكثر فصول الكتاب طولاً، يقص علينا ابن العربي مستعيناً بموهبة فذة على صياغة خيوط الحكايات أحداث غرق السفينة التي نقلته إلى إفريقية وما أعقب تلك الحادثة من أحداث. قال: ((وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بنزوله ويغرقنا في هو له فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سليم، ونحن من السغب على عطب، ومن العري، في أقبح زي، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحتزمناها أزراً، واشتملناها لفافاً، تمجنا الأبصار وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فآوينا إليه فأوانا وأطعمنا الله تعالى يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم طريف)). ويتواصل ابن العربي في سرد ما وقع له في مجلس هذا الأمير. قال: ((.. أنالما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه فعل السامد اللاه، فدنوت منه في تلك الاطمار، وسمح لي بياذقته إذ كنت من الصغر في حد يسمح فيه للاغمار، ووقفت بإزائهم أنظر إلى تصرفهم من ورائهم ... فقلت للبياذقة: الأمير أعلم من صاحبه فلمحوني شزرا وعظمت في أعينهم بعد أن كنت نزرا...))[١٩] لا أجدني مغالية في الرأي إن قلت أن من يأتي على قراءة هذه القطعة الفنية من كتاب ((ترتيب الرحلة..)) حتى نهايتها، سوف يمتلكه شعور قوي بأنه يقرأ مقامة من مقامات المشرق العربي فأواصر الجمع بينها وبين المقامة كثيرة ، إن لم تكن كاملة. فهناك مثلاً (العقدة) التي هي أصل الحدث. وهي عند ابن العربي تجلت في حادثة غرق السفينة. ويوجد أيضاً ركن مهم هو [البطل] الذي تدور حوله الأحداث كلها، وهو في العادة على قدر كبير من الشجاعة والكفاءة الفكرية والجسدية مما يؤهله ليغدو في صورة [البطل المنقذ]. وهو هنا ابن العربي نفسه. ومع العقدة والبطل، نتابع مهارة الاديب الفنان أبي بكر بن العربي في حبكة تطور الاحداث في مسار تصاعدي درامي، مذ غرق السفينة فالنجاة من الموت فالوصول إلى إمارة بني كعب، فالدخول إلى مجلس أميرهم ومارافقه من أحداث حتى نصل الى الخاتمة أو نهاية القصة.

وفي النهاية يأتي الركن الأخير الجامع بين عمل أبي بكر بن العربي والمقامةويتمثل في الحكمة أو الموعظة التي يخلص إليها. قال ابن العربي ((... فالنظر الى هذا العلم الذي هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، أنقذا من العطب وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب ..))[٢٠]

وفي فصل آخر من فصول الرحلة يدور حول موضوعة أخرى يصف لنا ابن العربي جانباً من العادات الاجتماعية في البيوت الدمشقية قال : ((... دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر ... رأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى. فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إلينا، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا فلما فرغنا ألقى الخدم الأواني ومامعها في النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلمت السروإنّ هذا لعجيب))[٢١].

وقد دارت عدة فصول من كتاب الرحلة حول وصف مشاهد اللقاءات التي تمت بين ابن العربي وعدد من شيوخ وعلماء القرن الخامس للهجرة وفي مقدمتهم الأمام الغزالي والذي التقاه كثيراً أثناءرحلته . ففي فصل يصف خلاله لقاءه بالامام الغزالي، غلب عليه طابع الجنوح نحو الغرابة والخيال، قال : ((رأيت الغزالي في البرية، وبيده عكاز، وعليه مرقعة، وعلى عاتقه ركوة ... فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له : ياإمام أليس تدريس العلم ببغداد أحسن من هذا؟ فنظر إلي شزراً وقال: لما طلع بدر السعادة في فلك الارادة .. وجنحت شمس الوصول في مغرب الأصول:

تركت هوى ليلى وسعدى وعدت الى تصحيح أول منزل
ونادت بي الاشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل[٢٢]

ويكاد القارئ لفصول الكتاب أن يقف على أكثر من فصل يتعرض للقاءات ابن العربي بالعلماء والمفكرين أنذاك.

وكانت المشاهدات ذات الطابع الوصفي الجغرافي قد أخذت هي الاخرى حيزاً من موضوعات فصول الرحلة. ففي قطعة وصفية لمعلم من معالم طور سيناء قال: ((شاهدت المائدة بطور زيتا، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً ، وذكرت الله سبحانه فيها سراً وجهاراً. وكان ارتفاعها أشف من القامة بنحو شبر، وكان لها درجان قبلي جنوبي وكانت صخرة صلوداً لاتؤثر فيها المعاول ... والذي عندي أنها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء ... وكان ماحولها محفوفاً بقصور وقد نحتت في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها...))[٢٣]

وحظيت مجالس العلماء ايضاً بنصيبها من عناية الرحالة ابن العربي فحرص وفي فصول كثيرة من كتابه على تسجيل كل ماكان يدور فيها من أحاديث ومناقشات في معارف شتى. ففي مجلس لشيخ الاسلام أبي بكر الشاشي مثلاً قال ابن العربي: ((يقال في اللغة العربية لا تَقرَب كذا بفتح الراء أي لا تتلبس بالفعل وإذا كان بضم الراء كان معناه لاتدن من الموضع. وهذا الرأي الذي قاله صحيح مسموع))[٢٤] وماكان أبو بكر بن العربي ليقصر عنايته في كتابه على ماقدمنا ذكره من شؤون ذات طبيعة جادة، بل التفت إلى ذكرما صادفه من نوادر وأمور غريبة فقال في أحد فصوله: ((وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد الإمام دانشمند من بلاد المغرب خنثى ليس له شعر له لحية وله ثديان وعنده جارية، فربك أعلم به، ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودي اليوم لو كاشفته عن حاله))[٢٥] لقد أشرنا في الصفحات السابقات نوعية الموضوعات التي دار حولها ما وصلنا من فصول ترتيب الرحلة للترغيب في الملة. وفيما يأتي جدول يوضح الفصل وموضوعه بحسب قراءتنا الخاصة له:-

الفصل	عدد الفصول	الموضوع
في: ركوب البحر وغرق السفينة	١	وصف مشهد حادثة حقيقية
في: بعض بيوت دمشق :السفر يوم الاربعاء	٢	وصف مشهدين لعادات حياتية واجتماعية .
في : الالتقاء بالشيوخ والعلماء	٥	وصف لأعلام العلماء في القرن الخامس للهجرة
في : مجالس العلم وما يدورفيها	٨	وصف للحياة الفكرية والثقافية في القرن الخامس للهجرة.
في : مائدة طور زيتا مدينة مكة وماء زمزم	٢	وصف مشهدين جغرافيين
في: نوادر وغرائب	٣	وصف أحداث غير مألوفة

بعد أن استوفينا الجانب الموضوعي من فصول الرحلة، توضيحاً نعرج الان على الجانب التأليفي لتلك الفصول، محاولين تشخيص أبرز الاشكال الاسلوبية التي اعتمدها أبو بكر ابن العربي في الصياغة، فانتهينا إلى أنه قد التزم نمطين مختلفين في التأليف الأول: هو

الاسلوب المسجوع والثاني: هو الاسلوب المرسل. كما لاحظنا أن اعتماده على أيّ من الاسلوبين كان يقوم على أساس من موضوع الفصل. فمالت الفصول التي تحدث فيها عن حادثة غرق السفينة وما أعقبها من أحداث. والتي وصف فيها وصفاً جغرافياً بعض الأماكن التي زارها، والتي استعرض خلالها لقاءاته بالعلماء، مالت إلى الاسلوب المسجوع، وإن بنسب متفاوتة في الكثرة أو القلة بين فصل وآخر. كما امتاز ذلك السجع المستخدم بظاهرة التنوع في فواصله التي لم تجر على وتيرة واحدة فلم تلزم حرفاً واحداً بعينه ولكن تنوعت الفواصل داخل الفصل الواحد. ومن جانب آخر فقد حرص المؤلف على المزاوجة بين ضربي السجع ذي المقاطع القصيرة والاخر ذي المقاطع الطويلة، وإن تفوق الضرب الأخير من حيث العدد على قرينه في الفصل الواحد. ولعل ابن العربي في ذوقه التعبيري هذا يكاد أن يتفق مع ما رغبت فيه الذائقة العربية في الكتابة النثرية، والتي حرصت على الاكثار من السجع ذي الفقرات الطويلة على سواه ويعلل ابن الاثير هذا التفضيل، بعلتين الاولى: هي سهولة التناول أي البناء، والثانية لاقتراب هذا اللون من أن يكون ترسلاً بعيداً عن التكلف[٢٦].

وإذا كان الاعتدال في مقاطع الكلام غاية مطلوبة إذ النفس تميل إليه بالطبع [٢٧] فقد لمحت عناية ابن العربي أحياناً، بأن يجعل مقاطعه المسجوعة، مزدوجة ومرصعة في آن واحد. وذلك حرصاً منه على اثراء الجانب الايقاعي لفصوله باستخدام أكثر من فن بلاغي إيقاعي. فإذا قرأنا المقطع الاتي من الفصل الذي وصف فيه ابن العربي مشهد غرق السفينة وماتلاه تأكدت لنا كل ملاحظاتنا السابقة حول الاسلوب المسجوع. قال ((... وأخذنا نضيف إلى ذلك من الاغراض، في طرفي إبرام وانتقاض، ماحرك منهم إلى جهتي دواعي الانتهاض، وأقبلوا يتعجبون مني ويسألونني كم سني ويستكشفونني عني، فبقرت لهم حديثي وذكرت لهم نجيثي، وأعلمت الأمير بأن أبي معي، فاستدعاه وقمنا الثلاثة إلى مثواه، فخلع علينا خلعه وأسبل علينا أدمعه، وجاء كل خوان بأفنان وألوان..))[٢٨] . نلحظ مقدار التنوع الصوتي المتولد عن التنوع الحرفي للفواصل والمتحقق بين أصوات : الضاد والياء والهاء وأخيراً النون وجع ابن العربي في هذه المقطوعة أيضاً بين المقاطع الطويلة والاخرى القصيرة . وكما يبدو أنه كان حريصاً على اغناء هذه المقطوعة ايقاعياً، فالتزم الفقرات المسجوعة والمزدوجة والمرصّعة معاً لنقرأ هذا المقطع ((أقبلوا يتعجبون مني ويسألونني كم سني ويستكشفونني عني حديثي لهم حديثي وذكرت لهم نجيثي)). وفي فصل آخر من فصول الكتاب يصف ابن العربي لقاءه بالامام الغزالي فقال: ((ورد علينا دا نشمند .... فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه وقلت له : أنت ضالتنا التي كنا ننشد ، وإمامنا الذي به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ماكان فوق الصفة ..))[٢٩] نتوقف في هذا الفصل على الملاحظات

السابقة نفسها بخصوص الاسلوب المسجوع، فقد تنوعت الفواصل لتنوع حروفها وترددها بين الالف المقصورة والهاء والدال والتاء وأضيف إلى ذلك تلون الفقرات المسجوعة بظاهرة الترصيع (أي الفاصلة أو القافية الداخلية) ، إلى جانب الجمع بين الفقرات الطويلة والقصيرة معاً.

أما الاسلوب الثاني الذي أعتمده ابن العربي في ترتيب الرحلة فهو كما أسلفنا الاسلوب المسترسل الذي تخلو فواصله تماماً أو تكاد من ظاهرة السجع وما قد يرافقها من ازدواج وترصيع فتبدو الفقرات منثورة تأتي الواحدة تلو الاخرى دون قواطع صوتية فاصلة بين مقطع وآخر أو فاصلة وأخرى. وقد تمثل هذا الاسلوب في الفصول التي أشار فيها ابن العربي الى مجالس العلم وما كان يدور فيها من معارف، وكذا في المواضع التي جاء فيها بالنوادر والحكايات الغريبة. فهو عندما يأتي على ذكر أحد هذه المجالس يقول: ((فقرأ القارئ (تحيتهم يوم يلقونه سلام) وكنت في الصف الثاني من الحلقة بظهر أبي الوفاء علي بن عقيل إمام الحنبلية بمدينة السلام ... فلما سمعت الآية قلت لصاحب لي كان يجلس على يساري: هذه الآية دليل على رؤية الله في الأخره ...))[٣٠]. من الواضح ان فقرات الفصل تتابع الثانية بعد الاولى دون فواصل صوتية تفصل بينها وقد نظن أن العلة في قيام فصول المجالس العلمية على الاسلوب المسترسل هو رغبة المؤلف في الاسهاب عند التعرض للمشاكل والقضايا الفكرية، والمجيء بكل تفاصيلها و دقائقها، وفي هذه الحال قد لا تسعفه الفواصل المسجوعة دوماً، فيميل عنها إلى الاسترسال. ومع استقلال كل اسلوب من الاسلوبين السابقين بفصول بعينها كما اسلفنا إلا أن ذلك لم يمنع ابن العربي من محاولة الجمع بين الاسلوبين أحياناً. فعلى سبيل المثال قال متحدثاً عن مكة: ((كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً، وكل ما شربته نويت به العلم والايمان، ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار ... ونسيت أن أشربه للعمل ويالينتي شربته لهما حتى يفتح الله تعالى لي فيهما ...))[٣١] يلحظ القارئ، عملية المزاوجة بين الفقرات المسجوعة والاخرى المسترسلة واضحة جلية فيما تقدم.

وقبل أن أنهي حديثي عن الجانب التأليفي في كتاب ترتيب الرحلة أود أن أشير إلى تشخيصي وسائل تعبيرية أخرى ولكنها لم تشكل ظواهر أسلوبية يمكن أن تستدعي الوقوف عندها كما كان الحال مع ظاهرة السجع مثلاً. ومن هذه الفنون التعبيرية تأتي الاستعارة كقول المؤلف مثلاً في فصل غرق السفينة : ((ونحن من السغب على عطب، ومن العري في أقبح زي. قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها، ودسمت الادهان وبرها وجلدتها...)) فالسغب أصبح عطباً . والعري صار زياً قبيحاً والبحر يقذف زقاق الزيت، والحجارة تمزق الجلد. فهذه تعابير ما كان لها أن تقوم لولا عملية الاستعارة المكنية.

ويمكن لنا أن نلمح بعض الفقرات القائمة على أساس من التشبيه فعندما وصف ابن العربي لقاءه بالامام الغزالي استخدم بعض الفقرات التشبيهية، عندما قال : ((قلت له: أنت ضالتنا التي كنا ننشد. وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا فيه ماكان فوق الصفة..)) . إن التشبيه البليغ في [أنت ضالتنا] و[لقينا لقاء المعرفة] جلي جداً.

وفي نهاية مطاف هذه الرحلة البحثية في ترتيب الرحلة للترغيب في الملة. مؤلفاً ومؤلفاً وارهاصات ومضامين وطرائق تأليف فني، أتمنى أن أكون قد وفقت إن شاء الله تعالى في خدمة القارئ الكريم خدمتين: الأولى: إذ أطلعته على ذخيرة نفيسة من ذخائر تراثنا العربي والاسلامي في الاندلسي عندما مسحت الغبار – وعلى قدر استطاعتي، وما تقتضيه أصول البحث نفسه – عن علق من أعلاق القرن الخامس للهجرة.

والخدمة الثانية: ما منحته له – بحسب ظني – من لحظات الزمن المغموسة بالمتعة والفائدة . والله من وراء القصد.

الغراب في الأمثال العربية القديمة

د.صلاح خضر بني
كلية التربية / الجامعة المستنصرية

لم تتوقف اهتمامات العرب في اتخاذ السباع والضواري والدواب وسائر الحيوانات التي تدب على أربع ، وأنما امتد ذلك إلى الطير وما يزخر به الفضاء من حيوان يطير بأجنحة ، أو يُعد من الطير لأن له أجنحة ، لكنه لا يطير إلى الفضاء ، وأنما يتحدد طيرانه من نوع إلى آخر.

وقد اخترنا الغراب من بين هذه الطيور ، لعدة أُمور يتمتع بها هذا الطائر ، منها :

أ. انه ارتبط بقصص الحيوان ذات المنحى العقائدي ، ولا سيما قصته منذ بدء الخليقة في قصة الأخوين ، " قابيل " و "هابيل " ، واقتتالهما ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى ، بعث الغراب ليعلمه كيف يواري " قابيل " سوءة أخيه القتيل ، وفي القرآن الكريم :

" فَبَعَثَ اللهُ غراباً يبحثُ في الأَرضِ لِيُرِيَهُ كيف يُواري سوءة أَخيه قال ياويلتي أَعَجَزْتُ أَن أكون مِثْلَ هذا الغراب فأُواري سوءة أَخي فأَصْبَحَ مِن النَّادمين" [١].

وقد أورد القرطبي المتوفى ٦٧١ هـ في تفسيره ، جملة من التفاسير عن هذه الآية الكريمة ، منها :

١-ان الله سبحانه بعث غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر فدفنه[٢].

٢-ان الغراب بحث الأرض على طُعْمِه ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه ، وتلك عادة الغراب ، فتنبّه "قابيل" بذلك على مواراة أخيه[٣].

٣-ان "قابيل" كان يعلم الدفن ، ولكن ترك أخاه في العراء استخفافاً به ، فبعث الله غرابا يبحث التراب على "هابيل" ليدفنه فقال عند ذلك :"يا ويلتي أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأُواري سوءة أخي فأَصْبَحَ من النادمين "حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيّض له الغراب حتى واراه[٤] .

وفسر القرطبي الآية الكريمة التي مرت بقوله : إنّ الله سبحانه بعث الغراب ليكون فعله حكمة يُرِي من خلالها الانسان ويعلمه كيفية المواراة ، حتى صار فعله ذاك سنّة باقية في الخلق[٥] .

ب.ورود هذا الطائر في قصص الطوفان ، منها :